المحاضرة السادسة: مظاهر الحدائث الشعرية: الصورة الشعرية

1. الصورة الرمزية في الشعر المعاصر (البياتي أنموذجا):

يعرّف بعض الدارسين الرمز عموماً بأنه "تركيب لفظي، أساسه الإيحاء، عن طريق المشابهة، بما لا يمكن تحديده، بحيث تتخطى عناصره اللفظية كلّ حدود التقرير، موحّدة بين أمثاج الشعور والفكر"، أما الرمز الأدبي، فقد استمدّه الشاعر المعاصر من عناصر عديدة، كالطبيعة والأسطورة وحتى واقعه النفسي.

يقول أحد الباحثين المشتغلين في مجال الرمز والرمزية في الشعر المعاصر: "وإذا كانت الطبيعة مصدراً استمد منه الشاعر العربي بعض أشكاله الرمزية معتمداً على خاصيّتي التجسيد والتشخيص، فإنّها في الحقيقة لا تعدو أن تكون منبعاً واحداً من منابع عدّة اتكأ عليها في هذا الصدد... فواقع الشاعر العصري هو واقع حياته الواعية واللاواعية، وهو الواقع النفسي بكلّ ما يزخر به من رؤى وأوهام ورغبات حبيسة تنطلق خلال العمل الشعري وقد ارتدت أشكالاً رمزية تخفي أصولها ومنابعها، وهو بهذا الاعتبار من أغنى مصادر الرمز في شعرنا الحديث"ⁱⁱⁱ، بمعنى أنّ بناء العمل الشعري القائم على الترميز، يستند في كثير من الأحيان على الواقع النفسي للشاعر، بما فيه من انفعالات قد تبدو مشوشة وغريبة أحياناً، لكنّها في الواقع، تُخفي مواقف وتجارب مدركة باطنة يخترنها العقل، فيعبّر عنها الشاعر بطريقة رمزية لتتبدى لنا كأحلام الغامضة والمهمة.

يؤكد الباحث عز الدين إسماعيل هذه الفكرة بقوله: "فالرمز الشعري مرتبط كلّ الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى خاصاً، وليس هناك شيء ما هو في ذاته أهمّ من أي شيء آخر إلا بالنسبة للنفس وهي في بؤرة التجربة، فعندئذ تتفاوت أهميّة الأشياء وقيمتها"ⁱⁱⁱ، فاستخدام الشاعر المعاصر للرمز، لا بدّ أن يكون مشفوعاً بحسن استغلال كلّ أبعاده وعلاقاته القديمة، وأنّ يوظّفه داخل سياقه المناسب، مع إضفاء حسّ التجربة النفسية الخالصة، بلغة شعريّة راقية، نابعة من أعماق النفس الشاعرة، حتى يُحقّق التأثير المطلوب لدى المتلقي.

يؤدّي الرمز في الشعر المعاصر دوراً فاعلاً في تعميق أثر الفكرة، وتوسيع آفاق التأويل لدى المتلقي، لهذا تعددت طرق التعامل معه، فنيّاً ودلاليّاً، ويتفق الدارسون على أنّ مالارميّه Mallarmé هو المؤسس الحقيقي للمدرسة الرمزية، والشعر عنده "تعبير مُحكم للمجهود العقلي الذي يهدف إلى الجمال المحض، وهو جمال لا يتحقق في عالم الواقع، إذ ليس هذا الواقع إلا رمزاً لعالم حقيقي غير منظور، عالم يرى فيه مالارميّه:

جزيرة يحملها الهواء..

تراها البصيرة ولا يراها البصر

تمتدّ فيها الزهور إلى المدى..^{iv}

تأثر أغلب الشعراء العرب المعاصرين بأفكار مالارمييه، ونظريته الشعرية القائمة أساساً على الطاقة الإيحائية للكلمة، ومنهم عبد الوهاب البياتي الذي آمن بما ورائية الأشياء، وبالعلاقة المعقدة بين ثنائيات: حياة/ موت، إنسان/ الطبيعة، رمز/ واقع، يقول: "كنتُ أحول كلّ رمز أراه أو أسطورة إلى واقع من محاولة استقصاء جذورها.. كنتُ أحاول أن أفكّر: كيف يمكن تحويل الفعل الإنساني إلى رمز، وكيف يصبح الإنسان أسطورة.. توغّلتُ كثيراً في ما ورائية الأشياء.."^v، لكن الإجابات التي كان يتلقاها من الصعب تحليلها في ضوء العقل والمنطق، لهذا لجأ البياتي إلى تفعيل دور اللغة، من حيث إفراغها من محتواها الدلالي المؤلف، وإعادة شحنها بدلالات جديدة، وبطاقة إيحائية عالية، توافق رؤيته الوجودية المعقدة، وتستجيب لانفعالاته وتوتراته النفسية المكثّفة، فكان الرمز أداةً فاعلة في تصوير إحساساته بالواقع والوجود، واثميناً للفكرة، يتحدث البياتي عن لغته الشعرية فيقول: "هي ليست لغة تقليدية، بل إنّها لغة تنبع من طبيعة التجربة نفسها، وليست لغة قاموسية أو جاهزة"^{vi}، بمعنى أنّ اللغة الشعرية المعبرة عن التجربة والموقف الصادق، والحاضنة للرمز الشعري، لا بدّ أن تكون مستلّة من طبيعة تلك التجربة ذاتها.

أدرك البياتي أهميّة الرمز الشعري، فلزمه في معظم قصائده، ليكون انعكاساً لتجاربه الظاهرة منها والباطنة، وتوثيقاً لثورته وتمردّه على واقعه المعيش، بما يكتسيه من فوضى واستتباب اللاعدالة واللااستقرار، حيث وجدنا أنّ "صور البياتي الموسّعة مرتبطة دائماً بالمعنى الرمزي في ذهن الشاعر، ولا تستعمل لذاتها مطلقاً، ويدين البياتي بالكثير إلى عدد من شعراء اليسار أمثال ناظم حكمت، إيلوار، أراغون، بابلونيرودا، ماياكوفسكي، لكنّ أسلوبه يبقى أسلوبه وحده، وهو أسلوب استطاع الحفاظ عليه طوال السنين، فازداد تعقيداً حتى اكتمل نضجه في (سفر الفقر والثورة) في عام 1965"^{vii}، لهذا ارتبط اسم البياتي بالرمز الشعري، حيث وظّفه كوسيلة كشف واعية للعالم والوجود.

لكنّ صوره الرمزية لاقت بعض النقد من ناحية التركيب والأسلوب، تقول الباحثة سلمى خضراء الجيوسي: "لكنّ صور البياتي، على الرغم من أصالتها غالباً، يندر أن تتميزّ بجمال نادر فريد الهاء... وثمة عيب مهمّ آخر يُفسد تأثير صور البياتي، وذلك في تناوله الإيقاع، فهو يبدو واقعا تحت سيطرة موسيقى شعره.. وهو إذ يكتب في مواضيع بالغة الجدّيّة، أو مأساويّة أحياناً، لا ينجح دوماً في تصوير وضع مقنع، والسبب الرئيس في ذلك هو تلك السيولة الدافقة في موسيقاه، ففي قصيدة جادّة مثل (عذاب الحلاج) يخفّف أثر المأساة بسبب سيولة مفرطة غير فنية في لغة القصيدة وبسبب التنوع المتواصل في القافية"^{viii}، ومع ذلك تكرر حضور الرمز في شعر البياتي، بطرق واتجاهات متفاوتة في العمق والقيمة، كما سيأتي:

1.4. الأسطورة:

شاع حضور الأسطورة شعر البياتي، منها أسطورة عشتار، تموز، فينيق، أوزوريس، لعازر، وغيرها، لكن أبرزها أسطورة (سيزيف)، وعنها يقول في ديوان (أباريق مهشّمة) الذي صدر سنة 1954: "رسمتُ في قصيدة (في المنفى) صورة الإنسان الذي يُناضل كلّ يوم تحت الشمس، والذي يمثل في نضاله أسطورة سيزيف حيث يمضي مدحرجا صخرته التي لن يتحرّر منها إلا بالموت.."^x، وتتجلى الفكرة في هذا المقطع الشعري من قصيدة (في المنفى):

الصخرة الصمّاء، للوادي، يدحرجها العبيد

(سيزيف) يُبعث من جديد.. من جديد

في صورة المنفيّ الشريد^x

ثمّ يستطرد في السياق نفسه: "وحيث إنّ سيزيف هذا يحلم بالماضي ولا يتطلّع إلى المستقبل إلا كزمن يعود فيه الماضي الميئوس من عودته مع ذلك كلّهُ"^{xi}، ثمّ يجسّد فكرته في المقطع الآتي من القصيدة نفسها:

تقضي بقيّة عمرك المنكود فيها تستعيد

حلما لماضي لن يعود^{xii}

فأسطورة سيزيف في شعر البياتي، نتاج تجارب روحية وفكرية متفاوتة القيمة الفنية، تقبلها البياتي بكلّ دلالاتها الإيحائية ومضامينها الثقافية، واستند إليها في تعبيره عن رحلة الآلام والأمال لإنسان العصر الذي تتقاذفه الصراعات السياسية والاجتماعية من كل جانب، ليكون سيزيف رمزا للمقاومة والنضال والتحدّي في شعر البياتي.

وظّف البياتي الأسطورة، لأغراض ذاتية، جماعية وفنية، كما أدّت الأسطورة في شعره وظائف كثيرة أهمّها الوظيفة الفكرية، حيث عانى البياتي أوجاع المنفى والسجن وحتى الاغتراب، فكانت أساطير التضحية والنضال من أجل الحق، وتلك التي تعبّر عن الرغبة في التجدد والانبعاث، خلاصه لبثّ همومه وقلقه وتمردّه، وتلخيص مآسي البشر مع حثّهم على تغيير مصائرهم بحثا عن غد أفضل، يقول في (الجرادة الذهبية):

الموت في الحياة

نومٌ بلا بعث ولا رقاد

فلتنفخي، أيتها الساحرة، الرماد

لعلّ شهرزاد

تمدّ من ضريحها يدا إلى النبيّ والشاعر في الميلاد

لعلّ نار إرم العماد

تلمع في صحراء هذي المدن المطلية الجدران بالسواد

لعلّ سندباد

يُشعل في صيحته جزائر الهند وأرخبيل بحر الروم

يحمل في مركبه للأمم المغلوبة البشاره.. وعشبه وناره

إلى الذين دُفِنوا أحياء في المغارة^{xiii}

حشد البياتي عددا من الرموز الأسطورية، والدينية، مثل (شهرزاد، سندباد، إرم ذات العماد) ليؤمئ إلى نكبة وطنه ومأساة أهله الراقدين تحت نير الظلم والدمار، باعثا فيهم شعاع الحرية والأمل، لغد أفضل، ومستقبل مشرق، لا يأتي إلا بالكفاح والنضال.

وعن الوظيفة الجمالية لأساطير البياتي، فقد تجلّت من خلال التكتيف الدلالي، والعمق الإيحائي في قصائده التي وظفت الأسطورة، حيث أدّى التشكيل اللغوي والأسلوب البلاغي الحاضن لمعاني الأسطورة، دورا فاعلا في دعم طاقات القصيدة من الناحية الفنية، يقول في (هبوط أورفيوس إلى العالم السفلي):

صلوات الريح في آشور والفراس في درع الحديد..

دون أن يُهزم في الحرب يموت

ويُذري في الدواميس رمادا وقشور

تحت سور الليل والثور الخرافي يطير

ناطحا في قرنه الشمس التي علّقها الكاهن في سقف الوجود

والمغنون شهود

وإلى النار التي أوقدها الرعيان في الأفق سجود

مدن تولد في المنفى وأخرى تحت قاع البحر أوقاع لياليها تغور

وينام الناس في أسحارها دون قبور

كالعصافير على حائط نور^{xiv}

يلاحظ القارئ لهذه السطور، وجود أجواء تاريخية أسطورية غريبة ومشوّقة، تجلّت في سياق لغويّ محكم التصوير، من الناحية البيانية، حيث أسقط البياتي واقع الحكايات الأسطورية القديمة، على الواقع الذي تعيشه الإنسانيّة اليوم، فشخصية (أورفيوس) الأسطورية تُحيل على البطل العاشق، الذي ضيّ بكلّ شيء من أجل إنقاذ حبيبته (عشتار) آلهة الخصب والجمال، من غيابات العالم السفلي، عالم الأموات، وهو البطل نفسه الذي يجسّد شخصية البياتي، العاشق لوطنه، والمضحيّ بحريّته في سبيل التزامه بقضايا الوطن وشعبه، فهو يبحث ويتوق لميلاد إنسان جديد، من واقعه المعيش، يناضل معه من أجل الحرية والكرامة، في وطنه المُستباح، العراق المنكوب.